الموسيقى عند العرب

للاستاذ قدرى حافظ طوقان

مقدمة :

قد يعجب البعض وقد يؤدى هذا العجب الى القول : ما علاقة صاحب هذا المقال بالموسيقى ؟ وهل هذا الفن يقع فى دائرة اختصاصه حتى يتمكن من الكتابة فيه ؟ وما هى الفائدة التى ستعود على القراء اذا عرفوا أن للعرب أو للمسلمين فضلا فيه ؟ ولماذا كل هذا الاهتمام بتراث السلف الذين مضوا بخيرهم وشرهم ؟ أما آن الأوان للاهتمام والانعكاف على شىء جديد حاضرا لنفع ممتع ؟ أجوبتى على هذه الأسئلة ستكون بالجملة ! فاجابة على السؤالين الأولين أقول إن الموسيقى هى من بحوث الصوت ، والصوت فرع من فروع علم الطبيعة ، وعلم الطبيعة هذا من العلوم التى نشتغل بها ونهتم بماضيها وحاضرها ، بتطورها ونموها . واما الجواب على الاسئلة الباقية فيمكن أن يتلخص فى أن الأمة التى تريد أن تصل الى ما تصبو اليه من تقدم وسؤدد يجب ان تهتم بماضيها ، وان تربطه بحاضرها ، وان تأخذ من الحضارة الحالية ما فيها من عناصر صالحة وبالقدر الذى يتلاءم ونفسيتها وتقاليدها بحيث لا يضيع شىء من مميزاتها ، وان تضيف هذا الى ما فى حضارتها من عناصر خالدة ؛ بذلك تستطيع أن تخرج حضارة جديدة تمد سلسلة التاريخ الفكرى للعالم ، وبذلك تكون قد قامت بواجبها نحو تاريخها وتراثها ونحو المدنية والبشرية

نبذة فى أطوار الموسيقى

الموسيقى من الفنون الجميلة ومن أهم العوامل التى تترجم عن نفسية الامة وطبائعها ، وهذا الفن طبيعى فى البشر ، فالانسان يرغب فى الموسيقى يطرب منها وترتاح نفسه لها ، وهى لغة العواطف ، وقد تكون هى الوحيدة من بين الفنون التى يطرب لها الحيوان . هذا الميل الغريزى فى الانسان دفعه الى الاعتناء بها فاهتم لها المتقدمون من قديم الزمن وبلغوا فيها شأوا بعيداً ، وابدع فيها اليونانيون وأحلوها محلها من الاعتناء والاهتمام ، وكذلك الرومان فانهم اعتنوا بها فاخذوها عن اليونان وزادوا عليها : وفى الشرق اهتم لها الصينيون واليابانيون وبرعوا فيها واخترعوا آلات كثيرة من ذوات الاوتار ، وظهر منهم من انتقد الموسيقى الاوروبية ، هذا فى الشرق الاقصى ، اما الفرس فاحتقروها فى بادىء الامر وترفع اعيانهم عن تعاطيها ، ولكن لم يلبث هذا الاحتقار وهذا الترفع ان حل محلهما العناية والاعتبار ، فالفوا انغاما بديعة التوقيع واخذ عنهم العرب كثيراً ، يدلنا على ذلك تسمية الالحان العربية باسماء فارسية كما أخذوا ايضاً عن البيزنطيين ، وهؤلاء (البيزنطيون) واهل فارس بدورهم أخذوا عن الموسيقى العربية . ولم يكتف العرب بذلك بل ترجموا كتب الموسيقى لليونان والهند ودرسوها ، وبعد أن نقحوها هى وغيرها زادوا عليها ، فالفوا فى ذلك المؤلفات القيمة ، وجمعوا بين الحانهم والحان اليونان والفرس والهنود ، واستنبطوا الحانا جديدة لم تكن معروفة فضلا عما اخترعوه من الآلات . ولا يظن القارىء أن فى وسعى أن اسرد تفصيلا تاريخ الموسيقى العربية والادوار التى مرت عليها فهذا ما لا طاقة لى به ، وساعمل جهدى فى هذا المقال ان أعطى فكرة بسيطة عن الموسيقى العربية من حيث قواعد انغامها وترتيب الحانها ومن حيث وزنها الموسيقى وآلاتها القديمة والكتب المؤلفة فيها . . . .

الانغام والالحان والوزن الموسيقى :

إن كلمة موسيقى مأخوذة عن اليونانية ، ومعناها تأليف الالحان ، والموسيقى « علم يعلم به النغم والايقاع واحوالها وكيفية تأليف اللحون وايجاد الآلات الموسيقية (١)

إن الاصوات الموسيقية درجات او ابراج متتابعة ، الواحدة فوق الاخرى الى عدد غير متناه ، والابراج الاصلية عند العرب تبتدىء بالباكاه ، فعشيران ، فعراق ، فرست ، فدوكاه ، فسيكاه ، فجهاركاه ، ويقال لها ديوان ، وفوق هذا الديوان ديوان آخر له ابراج النوى : فالحسينى ، فالارج ، فالماهور ، فالمحير ، فالنزرق ، فالماهوران ، وما ارتفع عن ذلك فهو جواب لما يقابله فى الديوان الذى تحته وهكذا . وبين هذه الابراج فسحات تختلف بعضها عن بعض فى الكبر ؛ وقد قسمها العرب الى كبيرة ، وتتالف من أربعة ارباع ، وصغيرة مؤلفة من ثلاثة ارباع ، ويحتوى الديوان على اربعة وعشرين ربعاً ، وتختلف الالحان العربية واختلافها يرجع لأسباب ، منها طبقة النغم واختلاف الايقاع وتعويض الأبراج وتضعيف الألحان ، وبعض هذه يحتاج الى قليل من الشرح ، فطبقة النغم هى الانتقال فى سلم برج من الابراج صعوداً

(١) الانصارى - ارشاد القاصد - ص ١٢٧

ونزولا مع حفظ المساحات التي يتغير النغم بتغيرها ، وتعويض الابراج هي تعويض بالابراج بارباع ، وتضعيف الالحان هو الايقاع على برج يكون جواباً لمانحته ، والصعود والنزول على سلمه بحيث يبقى الجواب طبقة للنغم ، ولهذا يتضاعف الصوت . وكان للعرب عشرة انغام يبتدى كل منها على برج من أبراج الديوان فتفرع منه أنغام فرعية ، هذا من جهة الانغام والالحان ، وأما من جهة الوزن الموسيقى فاكتفي بالقطعة الآتية ، وقد اخذتها من المجلد التاسع عشر من مجلة المقتطف . « الوزن الموسيقى هو مجموع ضربات منفصلات بعضها عن بعض باوقات محدودة فى القياس ، وطبقا للنسبة والمكان فيمكن الانسان أن يوقع مقطعين بسيطين بضربتين فقط ، لكن الوقت يختلف بين أجزائها فرادفة المقاطع تكون اما متساوية أو غير متساوية ، فالمتساوية هي مراجعة الضربات بطريقة لانشعر بها مراجعة الأوتار بشرط أن يطول الوقت عند نهاية كل مجموع من الضربات أكثر من غيره ، فلو حدث اختلاف بين المجموعات ولو بضربة واحدة شذ القياس وفسدت المساواة ، ومجموع الضربات المتساوية الاوقات يسمى الوزن المجموع ، وغير المتساوية المقسوم . واذا قصر الوقت بين الضربات المتساوية حتى لا يمكن قسمتها بعد ذلك يسميها الفارابى (المزج السريع) ، واذا تضاعف الوقت بين الضربات يسميه (المزج الخفيف) ، او كان ثلاثة أضعاف (فالمزج الثقيل الخفيف) وهو يقابل الوقد المجموع ، أو أربعة أضعاف ، (فالمزج الثقيل) وما زاد على ذلك من الاوقات فنضع له الاسماء التي نختارها بشرط ان تختص بالوزن المجموع . وهذا كله يقابل تقسيم الاوقات فى الموسيقى الافرنجية . . . . »

العرب عمليون

وقد طبق العرب مبادىء علم الطبيعة على الموسيقى ، وكانوا دائما فى نظرياتهم الموسيقية عمليين ، فلا يقبلون نظرية الا بعد التثبت منها عملياً ، ويعترف فارمر (Farmer) أن علماء العرب لم يأخذوا بآراء الذين سبقوهم (حتى ولو كان نجم السابقين مضيئاً وعالياً) الا بعد أن يثبتوا منها عملياً ، والمعترف به عند علماء الفرنجة أن ابن سينا والفارابى وغيرهما من علماء المسلمين زادوا على الموسيقى اليونانية وادخلوا عليها تحسينات جمة ، وان كتاب الفارابى لا يقل عن (ان لم يفق) ، الكتب اليونانية الموسيقية . وثبت أن العرب أجادوا فى بحوث النغمات الكرية للصوت .

وفوق ذلك فقد زاد زرياب ، وتراً خامساً بالاندلس وكان للعود أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع فزاد عليها وتراً خامساً أحمر متوسطا ، ولون الاوتار وطبقها على الطبائع(١) وهو الذى اخترع مضراب العود من قوادم النسر فكانوا قبله يضربون بالخشب .

الآلات الموسيقية :

لا نستطيع أن نسرد كل الآلات الموسيقية التي كانت معروفة عند العرب ، ولهذا نذكر أهمها ، ولكن قبل ذلك نود أن نلفت النظر الى أن العرب اعتنوا بصناعة آلات الموسيقى ، وكانوا ينظرون لهذه الصناعة نظرهم الى الفن الجميل ، وقد كتبت عدة رسائل فى ذلك واشتهرت مدينة أشبيلية بها . وقد جمع المسلمون آلات غناء كثير من الامم كالفرس والانباط والروم والهند واستخرجوا من ذلك آلات تلائم أذواقهم وميولهم ، اضف الى ذلك ما أضافوه واخترعوه من شتى الآلات ، فمن الآلات التي كانت معروفة عندهم : الارغانون ، والبزق ، والطبلة ، والدف ، والشلياق ، والقيثارة ، والطنبور والعنق والرباب والمعزفة والشهروذ (وقد اخترع الاخيرة حكيم بن أحوص السفدى ببغداد) والعود ، وله خمسة أوتار أعلاها البم والثانى المثلث والثالث المثنى والرابع الزير والخامس الحاد ، وتترتب هذه الاوتار بصورة مخصوصة بحيث يعادل كل وتر ثلاثة أرباع ما فوقه ، والمسافة التي بينهما تعدل ربعاً ، ويقال ان الفارابى اخترع الآلة المعروفة بالقانون ، فهو اول من ركبها هذا التركيب ، ولا تزال عليه الى الآن ، وهو الذى اصطنع آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ، يحكى انه كان مرة فى مجلس سيف الدولة فسأله هل تحسن صنعة الغناء ؟ فقال نعم ، ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها واخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر ثم ضرب عليها فبكى كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب عليها ضربا آخر فنام كل من كان فى المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج ... » (٢) . واصطنع الزلام آلة

(١) ابن خلكان — وفيات الاعيان — ج ٢ ص ٧٧

(٢) ابن خلكان — وفيات الأعيان — ج ٢ ص ٧٧

موسيقيه من الخشب تعرف بالناى او المزمار الزلامى ، وأدخل زلزل عود الشبوط كما دخل الحكم الثانى تحسيناً على تركيب البوق

كتب العرب فى الموسيقى

للعرب مؤلفات قيمة فى الموسيقى بلغ بعضها الذروة ، وكانت (ولا تزال) من المصادر المعتبرة جدا فى تاريخ الموسيقى وتطورها ، وقد يكون كتاب مروج الذهب للمسعودى وكتاب الأغانى للاصفهانى من أكثر الكتب بحثا وكتابة فى اشتغال المسلمين والعرب فى الموسيقى ، وفى أشهر موسيقييهم وما يتصل بهؤلاء من طريف الحوادث ولذيذ الاخبار . ويرجع أن الكندى أول من كتب فى نظرية الموسيقى ، وكتبه فيها هى : الرسالة الكبرى فى التأليف ، كتاب ترتيب الأنغام ، كتاب المدخل الى الموسيقى ، رسالة فى الأيقاع ، رسالة فى الاخبار عن صناعة الموسيقى . وكتب فى ذلك أيضا منصور ابن طلحة بن ظاهر والرازى وقسطا بن لوقا البعلبكى والسرخسى ، وللاخير كتاب الموسيقى الكبير ، وكتاب الموسيقى الصغير ، وكتاب المدخل الى علم الموسيقى ، وللفارابى كتاب الايقاعات ، وكتاب آخر اسمه كتاب الموسيقى ، وهو من أشهر الكتب ، ويقول عنه سارطون « إنه أهم كتاب ظهر فى الشرق يبحث فى نظرية الموسيقى » ولثابت بن قرة رسالة فى فن النغم ، ولأبى الوفاء مختصر فى فن الايقاع ، وابدع ابن سينا فى الكتابة عن الموسيقى وله فيها مؤلفات منها : الفن الثامن من كتاب الشفاء وهو الموسيقى ، وفيه مقالات ولكل منها فصول ، والفن الثالث من الجملة الثالثة من كتاب الشفاء وكتاب الموسيقى . وهذا الكتاب يدور على مواضيع الاصوات والابعاد والاجناس والجموع والايقاع والانتقال والصنج والشاهرود والطنبور والمزمار ودساتين البربط وتأليف الالحان . وللشيخ شمس الدين الصيداوى كتاب فى الموسيقى تستخرج منه الانغام ، اكثره شعر ، وفيه كلام على بحور الشعر والاوزان ودوائر البحور ، ولصفى الدين عبد المؤمن البغدادى كتاب الرسالة الشرفية فى النسب التأليفية ، وهو مقسوم الى مقالات وفصول . ولصفى الدين الأرموى كتاب الادوار فى الموسيقى وينقسم الى خمسة عشر فصلا ، وفيه صورة عود وصورة آلة قائمة الزويا تسمى نزهة ، واشتهر هذا الكتاب كثيراً وبقى قروناً كثيرة المعين الذى استقى منه المؤلفون فى الموسيقى . ولمحمد بن محمد بن احمد الذهبى الجزيرى ابن الصباح شرح على كتاب فى علم الموسيقى ومعرفة الانغام ، وكذلك لابن زيلا ولابن الهيثم ولابى الصلت أمية ، ولنقاش والباهلى ولابى المجد ولعلم الدين قيصر ولنصير الدين الطوسى مؤلفات قيمة ، بعضها عديم المثال . وظهر فى الاندلس عدد لايستهان به ممن كتبوا فى الموسيقى وأجادوا فى ذلك إجادة أوصلت هذا الفن إلى درجة عالية ، فمن الذين اشتغلوا وكتبوا فيها : ابن فرناس والمجريطى والكرمانى وابو الفضل ومحمد بن الحداد وابن رشد وابن السمين والرقواطى وغيرهم ، وأنشأ صفى الدين عبد المؤمن الأموى مدرسة لتعليم الموسيقى وتخرج منها عدد غير قليل من العلماء الذين استطاعوا ان يتقدموا خطوات بعلم الموسيقى ، اشتهر منهم شمس الدين بن مرحوم ومحمد بن عيسى ابن كرا ، وهناك كتب عديدة لم يذكر فيها اسم مؤلفيها ككتاب الميزان وعلم الادوار والاوزان وهو مبنى على كتاب الادوار المار ذكره ومقسوم الى ستة ابواب فى ماهية الموسيقى وماهية النغم المطلق والاوتار والمواجب ومعرفة الشدود والاوزان واسماء الدساتين والأيقاع . وفى كتاب رسائل اخوان الصفا بحث فى الموسيقى موجود فى الرسالة الخامسة من القسم الرياضى ، وهذه الرسالة مقسمة الى أربعة عشر باباً وهى تبدأ بصفحة ١٣٢ وتنتهى بصفحة ١٨٠ ، ومن يرغب فى الاطلاع على ما كتب فى كل باب فليرجع الى الكتاب المذكور ففيه تفصيل وكفاية ، واذا اردنا أن نعدد الذين نبغوا فى فن الموسيقى و كتبوا فيه حتى القرن الرابع عشر الميلاد يطول بنا المطال وقد يخرج مقالنا هذا عن القصد .

نابلس — قدرى حافظ طوقان

فرصة لمحبي الثقافة الحديثة

اشتراك سنة ونصف

بقيمة اشتراك سنة واحدة

قررت ادارة المجلة الجديدة لصاحبها ومحررها سلامه موسى مد هذه الفرصة الى ١٥ مايو فى مصر والسودان والى اول يونيه فى الخارج خدمة للقراء والاشتراك ٤٠ قرشا فى مصر والسودان و١٢ شلنا خارجهما . ارسل الاشتراك فنبعث لك بأعداد السنة الماضية والاثنى عشر عددا القادمة وثلاثة كتب هدية

الادارة : المجلة الجديدة ١٢ شارع نوبار بمصر (مكتب بريد الدواوين)